

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس : ٣ - تفسير الآيات ٢١-٢٦ أهمية التذكير بوعد الله سبحانه ووعده.

٠١-٠٢-١٩٨٥

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتِّباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فينتبهون أحسنه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

في القرآن الكريم ترابط بين مقاطع السورة مقطوعاً مقطوعاً :

أيها الأخوة الكرام، وصلنا في الدرس الماضي في سورة الغاشية إلى قوله تعالى:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾

بيئْتُ لكم في الدرس الماضي أن القرآن الكريم أَحْكَمَتْ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ فَلَا بَدَّ مِنْ تَرَابُطٍ بَيْنَ مَقَاطِعِ السُّورَةِ مَقْطَعاً مَقْطَعاً، وَذَكَرْتُ وَقْتَهَا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى سَيَّرَ فِي الْمَقْطَعِ الْأَوَّلِ أَحْوَالَ أَهْلِ النَّارِ، وَفِي الْمَقْطَعِ الثَّانِي أَحْوَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَبَيَّنَّ فِي الْمَقْطَعِ الثَّلَاثِ أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفُوزَ بِالْجَنَّةِ وَتَنْجُوَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ فَعَلَيْكَ بِالْإِيمَانِ، وَطَرِيقَ الْإِيمَانِ التَّفَكُّرُ فِي آيَاتِ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ، وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى ضَرَبَ بَعْضَ الْآيَاتِ كَمَثَلٍ لَا عَلَى سَبِيلِ الْحَصْرِ بَلْ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى

الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

المَقْطَعِ الْأَخِيرِ، مَا عِلَاقَتُهُ بِالْمَقَاطِعِ الْأُولَى؟ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ عِزِّ وَجَلِّ يَسْعُدُونَ إِلَى أَيْدِ الْأَبْدِينَ، وَأَهْلَ النَّارِ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ عِزِّ وَجَلِّ يَشْفَقُونَ إِلَى أَيْدِ الْأَبْدِينَ، وَأَنَّ الْآيَاتِ مَبْتُوثَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فِي أَنْفُسِكُمْ، وَفِي طَعَامِكُمْ، وَفِي شَرَابِكُمْ، وَفِي النَّبَاتِ، وَفِي الْحَيَوَانَاتِ الْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِ الْأَهْلِيَّةِ، وَفِي الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ، وَفِي السُّهُولِ وَالصَّحَارَى، وَفِي الطَّيُورِ وَالْأَسْمَاكِ، إِذَا كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ كَذَلِكَ وَالْآيَاتِ كَذَلِكَ وَأَهْلُ النَّارِ كَذَلِكَ وَهَذَا الْإِنْسَانُ لَا يُفَكِّرُ فِيهَا فَمَاذَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَهُ أَنْتَ؟!

فِعْلُ (ذَكَرَ) يَسْتَلْزِمُ أَنَّ فِي النَّفْسِ شَيْئاً كَامِناً إِذَا ذَكَرْتَ بِهِ الْإِنْسَانَ يَذْكُرُهُ وَهُوَ الْفِطْرَةُ :

قال تعالى:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾

الإنسان لا يفكر، هل تتزكُّه على حاله؟ لا بُدَّ من التذكير، ما معنى فَدَكَّرَ؟! حينما تقرأ صفحةً من كتاب قد لا تذكرها فإذا جاءك صديقٌ أو زميلٌ ودَكَرَكَ بها تذكرُها، لا بدَّ من أن تكون قد قرأتها، ففَعَلُ (دَكَرَ) يستلزم أن في النَّفْسِ شيئاً كامناً، إذا دَكَرَتْ به الإنسان يذكرُها فلو لا هذا الشيءُ الكامن، ما معنى قوله تعالى:

﴿ فَدَكَّرَ ﴾

لم يقل الله تعالى: (عَلِمَ) إنما قال: (دَكَرَ)، معنى ذلك أن شيئاً كامناً جئت أنت أيها النبي فَدَكَّرْتَهُ به فَدَكَّرَهُ، ما هو هذا الشيء الكامن؟ الفِطْرَةُ، حينما خلق الله الإنسان خلقه بِفِطْرَةٍ لا ترتاح إلا إذا عَرَفْتَهُ، مثلاً السَّمَكَةُ طبيعتها وشكلها وزعانفها وأكياس الهواء فيها، بُنِيَةُ السَّمَكَةِ من ألفها إلى يائها مُهَيَّأَةٌ لِتَكُونَ في الماء فإذا وَضَعْتَهَا في الماء ترتاح، وإذا حَرَجْتَ منه تَحَرَّكَتْ واضْطَرَبَتْ وماتت فالإنسان إذا عرف الله عز وجل عاد إلى فِطْرَتِهِ، ربنا عز وجل خلق الإنسان ضعيفاً فإذا عرف الله عز وجل اطمأن وإذا انقطع عنه اضطرب فحياة الذين لا يستقيمون على أمر الله مُضْطَرِبَةٌ، وحياتهم قَلَقَةٌ وفيها نَعَصٌ قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾

[سورة طه: ١٢٤]

بعض علامات الإيمان :

إذاً كلمة (فَدَكَّرَ) معناها يوجد بالنفس شيءٌ كامنٌ، وهو الفِطْرَةُ السليمة التي فطرَ الناس عليها، وهو تلك الاستعدادات والإمكانات والخصائص التي إن عرفت الله عز وجل تفاعلت وعملت وأبدعت، فعندما يكون الإنسان غير مُستقيمٍ وبعيداً عن الله عز وجل تُصْبِحُ حياته قَلَقَةً، وفيها اضطرابٌ، ورُدود فعله عنيفةٌ جداً، وغير منطقي، يُحِبُّ أن يأخذ ما له وما ليس له، يخافُه الناس، يكرهُه الناس، فإذا عرف الله عز وجل وهو ضعيفٌ اطمأنت نفسه بِقُوَّةِ الله، وإذا عرف الله عز وجل وهو الهلوع توازنت نفسه بِعَدَالَةِ الله، إذاً ربنا عز وجل لما قال لِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ: فَدَكَّرَ، كان ذلك دليلاً أن في النفس البشرية شيئاً كامناً مُهَيَّأً لِلإيمان، ومن كان صادقاً يعرف ما نقول! قال ابن عطاء الله الإسكندري: لا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول، من آمن إيماناً صحيحاً يقول لك: كنت في جهنم، وقد أصبَحْتُ في الجنة، يقول لك: ليس في الأرض أسعدَ مِنِّي! يقول لك: أنا مُطمئن، لا يرى إلا الله ولا يخشى إلا الله، يُصْبِغُ الله عليه طمأنينةً وسكينةً وتوازناً وهدوءاً وجلماً وبصيرةً وحكمةً وفِرَاسَةً، هذه علامات المؤمن، لذلك من علامات الإيمان أن المؤمن يكرهُ أن يعود في الكُفْر كما يكرهُ الرَّجُلُ أن يُلقَى في النار، هذه بعضُ علامات الإيمان، فالنبي الكريم الله سبحانه وتعالى قال له: فَدَكَّرَ فالله خلق العباد كلهم على فِطْرَةٍ سليمةٍ وعلى بُنِيَّةٍ واحدة، لا فرق بينهم، ولا فرق بين أبيضهم وأسودهم، ولا غنيهم وفقيرهم، كلهم يخاف، فإذا عرف الله

اطْمَأَنَّ، كُلُّهُمْ لَهُ قَلْبٌ هَلُوغٌ فَإِذَا عَرَفَ اللهُ أَصْبَحَ جَسُورًا، كُلُّهُمْ يُجِبُّ الْمَاءَةَ فَإِذَا عَرَفَ اللهُ زَهْدًا فِيمَا سِوَاهَا، قَالَ تَعَالَى:

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾

[سورة المعارج: ٢١-١٩]

إِذَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مُوجَّهًا إِلَى النَّبِيِّ وَهُوَ قِمَّةُ الْعِلْمِ فَهُوَ مُوجَّهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيعَةِ :

كلمة (فَذَكِّرْ) تعني أَنَّ شَيْئًا فِي النَّفْسِ مُسْتَقَرٌّ، مُهْمَةٌ النَّبِيِّ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُ، أَنْ يُفَجِّرَهُ كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ، فِي الْإِنْسَانِ أَشْيَاءٌ كَامِنَةٌ، الْبَيْئَةُ الرَّاقِيَّةُ تُفَجِّرُهَا:

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾

قبل أن نصل إلى كلمة (إنما أنت مُذَكِّرٌ)، الأمرُ لِمَنْ؟ بِحَسَبِ ظَاهِرِ الْآيَةِ الْأَمْرُ مُوجَّهٌ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ يَا مُحَمَّدَ ذَكِّرْ، يَا دَاوُدَ ذَكِّرْ عِبَادِي بِإِنْعَامِي عَلَيْهِمْ فَإِنَّ النَّفُوسَ جُبِلَتْ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَبُعْضٌ مِنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا، وَلَكِنَّ عُلَمَاءَ التَّفْسِيرِ: إِسْتِنَادًا إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

((إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَأْمُورًا أَنْ يُذَكِّرَ، فَتَحْنُ أَيْضًا مَأْمُورُونَ أَنْ نُذَكِّرَ، فَإِذَا فَهَمْنَا أَنَّ الْفِعْلَ ذَكَّرَ أَنَّهُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، النَّبِيُّ قِمَّةُ الْعِلْمِ، مَا مِنْ إِنْسَانٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمَ مِنْ رَسُولِ اللهِ، الْآنَ تَجِدُ شَخْصًا يَأْخُذُ خَمْسِينَ حَدِيثًا وَيَتَعَمَّقُ فِيهَا فَإِذَا بِهِ يَأْخُذُ دُكْتُورَاهُ بِالشَّرِيعَةِ، إِذَا فَهَمْتَ كَلَامَ النَّبِيِّ فَأَنْتَ تَحْتَلُّ أَكْبَرَ مَكَانَةٍ عِلْمِيَّةٍ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ هُوَ النَّبِيُّ؟ سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ وَالْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ عَالَمٌ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مُوجَّهًا إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ قِمَّةُ الْعِلْمِ فَهُوَ مُوجَّهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيعَةِ، إِذَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ قَبْلَ أَنْ تُذَكِّرَ، إِذَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مُوجَّهًا إِلَيْكَ أَبْهًا الْمُؤْمِنِ يَنْبَغِي أَنْ تَفْهَمَ كِتَابَ اللهِ وَهُوَ أَصْلُ الْعِلْمِ، وَأَنْ تَكُونَ عَالِمًا، وَيَنْبَغِي أَنْ تَفْهَمَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ وَهِيَ أَعْلَى تَفْسِيرٍ وَفَهْمٍ لِكَلَامِ اللهِ، فَإِذَا فَهَمْتَ آيَةً وَذَاكَرْتَ بِهَا فِي الْبَيْتِ وَتَأَثَّرْتَ بِهَا، أَنْقَلْهَا إِلَى الْآخِرِينَ وَلَا تَجْعَلْ حَدِيثَكَ فِي أَمْرِ سَخِيفَةٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا وَدَنِيَّهَا"، رَاقِبْ نَفْسَكَ! مَا الْمَوْضُوعَاتُ الَّتِي تَخُوضُهَا مَعَ أَصْدِقَائِكَ وَرُؤْمَلَانِكَ وَجِيرَانِكَ وَمَعَ أَرْبَابِ مَصْلَحَتِكَ، فِي بَيْتِكَ مَعَ أَوْلَادِكَ وَرَوْجَتِكَ.

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ ثُمَّ تَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللهِ وَصَلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَامُوا عَنْ أَنْتَنَ مِنْ جِيفَةٍ))

((من جيفة))

[الطيالسي والبيهقي والضياء عن جابر]

كَلِمَةٌ (فَذَكِّرْ) إِذَا وُجِّهَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ تَنْطَوِي عَلَى دَعْوَةِ لِلتَّعَلُّمِ وَهُوَ غَيْرُ الْاسْتِمَاعِ :

كَلِمَةٌ (فَذَكِّرْ) تَنْطَوِي إِذَا وُجِّهَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى دَعْوَةِ لِلتَّعَلُّمِ وَهُوَ غَيْرُ الْاسْتِمَاعِ، قَدْ يَأْتِي رَجُلٌ إِلَى مَجْلِسِ الْعِلْمِ وَيَسْتَمِعُ إِلَى الدَّرْسِ وَيُخْرَجُ وَنَفْسُهُ مُمْتَلِئَةٌ بِهَذَا الدَّرْسِ، وَلَكِنْ قُلْ لَهُ بِرَبِّكَ: مَاذَا تَكَلَّمَ الْمُدْرَسُ؟ هَلْ تَذَكَّرَ آيَةً وَاحِدَةً أَوْ تَوْجِيهًا وَاحِدًا؟ مَا الَّذِي اسْتَفَدْتَهُ؟ إِنْ كُنْتَ تَسْتَمِعُ الْعِلْمَ وَلَا تَحْفَظُهُ وَلَا تُرَكِّزُهُ وَلَا تَتَعَمَّقُ فِي فَهْمِهِ فَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَعَمَّقَ فِيهِ وَتَنْقُلَهُ لِلْغَيْرِ؟! فَالْتَذَكِّيرُ الَّذِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْأَسَاسِ مُوجَّهَةٌ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

إِذَا هِيَ أَيْضًا مُوجَّهَةٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ فَالْمُؤْمِنُ يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يُذَكِّرَ وَأَصْلُ الْعِلْمِ كَلَامُ اللَّهِ، وَالْأَصْلُ الثَّانِي سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ، أَعْلَى فَهْمٍ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَدَقُّ تَفْسِيرٍ لِهَذَا الْكِتَابِ، الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْأَمْرِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلًا، وَكُلٌّ مِنْ آمَنَ بِهِ ثَانِيًا، لِذَلِكَ قَدْ تُسْأَلُ هَذَا السُّؤَالُ: أَنْتَ كَمْ رَجُلٌ؟ تَقُولُ: مَا هَذَا السُّؤَالُ؟! أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، نَقُولُ لَكَ: إِنْ هَدَيْتَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ رَجُلَانِ، وَإِنْ هَدَيْتَ رَجُلَانِ فَأَنْتَ اثْنَيْنِ، وَإِنْ هَدَيْتَ ثَلَاثَةً فَأَنْتَ ثَلَاثَةٌ، وَإِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً، بِهَذَا الْعُمُرِ الْمَدِيدِ كَمْ مِنْ إِنْسَانٍ اتَّجَهَ فِي اتِّجَاهِكَ وَتَأَثَّرَ بِأَفْكَارِكَ وَبِأَخْلَاقِكَ وَبِقِيَمِكَ، أَقْرَبَ النَّاسِ أَوْلَادَكَ وَزَوْجَتَكَ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي وَإِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ))

[الترمذي عن عائشة]

((لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم له بصاع))

[العسكري في الأمثال عن جابر بن سمرة]

خَيْرُ كَسْبِ الرَّجُلِ وَوَلَدُهُ، (فَذَكِّرْ)! هَلْ دَكَّرْتَ أَوْلَادَكَ؟! هَلْ دَكَّرْتَ زَوْجَتَكَ؟ وَمَا الْمَوْضُوعَاتُ الَّتِي تَخُوضُهَا مَعَ زَوْجَتِكَ فِي الطَّعَامِ، وَفِي السُّهْرَةِ، عِنْدَ الْاسْتِنْقَاطِ، وَعِنْدَ النَّوْمِ، دُنْيَا، أَثَاثُ الْمَنْزَلِ، مَشَاكِلُ الْجِيرَانِ، فُلَانٌ وَعِلَانٌ، فَذَكِّرْ لِلنَّبِيِّ أَوَّلًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ ثَانِيًا، فَهَذَا الْأَمْرُ مُوجَّهٌ إِلَيْنَا أَيْضًا. مَنْ الَّذِي يُذَكِّرُ؟ كُلُّ إِنْسَانٍ، هَلْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا إِنْسَانٌ أَبْعَدُ عَنِ الدِّينِ مِنَ الَّذِي قَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، وَالَّذِي قَالَ: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي! وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى:

{ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى *فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }

[سورة طه: ٤٣]

هذا الكلام له أبعاد وهو أن كُلَّ إنسان له إمكانيَّةُ الهدى بما فيهم فِرْعَوْنُ فلا تِيَأَسُ من الناس، الإمام مالك رضي الله عنه رأى رَجُلًا في الطريق مُلِّقَى على قارعة الطريق وزيد الخمر على شَفَقَتَيْهِ ويقول: الله، هذا الإمام الكريم أبي وكَبُرَ عليه أن يخرج هذا الاسم من فَمِ مَحْمُورٍ! القِصَّةُ مُطَوَّلَةٌ فما إِنْ مَسَحَ فَمَهُ وَأَكْرَمَهُ وأخذهُ إلى البيت، عالجَهُ بما يَسْتَجِيقُ فلما أوى إلى فراشه رأى في المنام أن الله سبحانه وتعالى قال له: يا مالك، طَهَّرْتَ قلبه من أجلانا فَطَهَّرْنَا قلبه من أجلك، ذَهَبَ إلى المسجد صباحاً، رأى رجلاً يَبْكِي في صلاته ولم يَأْلَفَ هذا الوجه من قبل، فقال له: من أنت يا أخي؟! قال: إنَّ الذي هداني أَخْبَرَكَ بِحالي! لا تِيَأَسُ من الناس، ولا تِيَأَسُ من شارِبِ الخمر ذِكْرُهُ، وكذا إِنْ كان آكلاً لِلرَّبِّاءِ، كُلُّ إنسانٍ له إمكانيَّةُ الهدى بما فيهم فِرْعَوْنُ، لكن بالحكمة وليس بالقسوة! قال أحدهم للأخر أريد أن أَنْصَحَكَ بالقسوة، فقال الآخر: ولم القسوة؟! لقد أرسل الله من هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌّ مِنِّي أرسل موسى إلى فرعون، وقال له:

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

[سورة طه: ٤٣]

حُجْمُكَ عِنْدَ اللَّهِ بِحُجْمٍ مِنْ أَهْتَدُوا عَلَى يَدَيْكَ، وما أَحَدَتَ رجلٌ رَجُلًا أَخًا في الله إلا أَحَدَتَ اللهُ له دَرَجَةً في الجَنَّةِ والكلام لا يُوَثِّرُ، الفعل هو الذي يُوَثِّرُ، قَدِّمَ خدماتك للناس، عاونهم في شؤونهم، قَدِّمَ لهم خبراتك، أعطهم من مالك أو أقرضهم إذا اضطر الأمر، قَدِّمَ لهم شيئاً من خبراتك في الحياة، عندئذٍ إذا ذَكَرْتَهُمْ يذكرون وقد يكون ويتأثرون، الكلام وحده لا يساوي شيئاً كله كلام بكلام، لكن المؤمن الصادق يحاول أن يبذل ممَّا آتاه الله حتَّى يستميل قلوب الناس، يجب أن تفتح قلب أخيك قبل أن تفتح عقله، افتح قلبه بالإحسان ثم افتح عقله بالحقائق:

﴿ فَذَكِّرْ ﴾

أنت المعني بهذه الآية ومن على وجه الأرض من المؤمنين معني بالتذكير.

التُّودَّةُ خَيْرٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الآخِرَةِ :

كلمة (ذَكَرَ) تعني أن في الإنسان فطرةً كاملة كما أن السمكة لها كل مقومات الحياة في الماء، فإذا وضعتها في الماء استقرت وارتاحت وسُرَّتْ، فإذا أخرجتها من الماء اضطربت وماتت، فحينما يقول الله عز وجل: (ذَكَرَ)، يعني في الإنسان فطرة سليمة فإذا أيقظت كوامنها وذَكَرْتَهُ بأصله وعرفته برَبِّهِ عاد إلى فطرته فسعد سعادةً كبرى، الأمر موجَّهٌ إلى النبي أولاً وإليكم بالتبعية، من يُذَكِّرُ؟ كُلُّ إنسانٍ بالحكمة والموعظة الحسنة، من أمر بالمعروفِ فَلْيُكُنْ أمره بالمعروف، كيف نُذَكِّرُ؟ ذَكَرَ من الثلاثي المَضَعَفُ،

مثلاً غَلَقَ البابَ لكن غَلَقَ البابَ أَرَصَدَهُ، كسر العود أما كَسَرَ العود أي بالغ في كسره، قطع اللحم أما قطع اللحم بالغ في التقطيع، مَزَّقَ الورق جعلها قطعاً صغيرة، فالفعل الثلاثي إذا ضَعَفْنَا عَيْنَهُ يُفِيدُ المُبالِغَةَ، فَرُبُّنَا عز وجل قال: (فَذَكِّرْ) أي أَكْثِرْ من الذِّكْرِ، لا إِسْرَافَ في التَّذْكِيرِ والخير ولا خير في الإِسْرَافِ، التَّوَدُّةُ خيرٌ في كُلِّ شَيْءٍ إلا في عَمَلِ الآخِرَةِ، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾

[سورة الأحزاب: ٤١]

وقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

[سورة آل عمران: ١٠٢]

التذكير يكون في كل وقت :

قال تعالى:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

[سورة الحج: ٧٨]

ذَكَرَ صباحاً ومساءً وليلاً ونهاراً، وفي أيام الرِّخَاءِ وفي أيام الشِّدَّةِ، وفي البُحْبُوحَةِ وفي الصِّحَّةِ وفي المرضِ، هذه الشِّدَّةُ تعني المُبالِغَةُ في التَّذْكِيرِ من الذي تُذَكِّرُ؟ ومن يُذَكِّرُ؟ وكيف تُذَكِّرُ؟ ما موضوعات التَّذْكِيرِ، تذكيرُ الإنسانِ بأصله، قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾

[سورة يس: ٧٧]

ذَكَرَهُ بَأَنَّ الجِسْمَ وهذه المكانة وهذه القُوَّةُ وهذا المالُ شيءٌ منَّ اللهُ به عليك، ألم يأتِ عليك حينٌ من الدَّهْرِ لم تَكُنْ شيئاً مذكوراً؟ كُلُّ مَنْأ له تاريخٌ ميلاد، لو فَرَضْنَا أَنَّ أَحَدًا مَنَّا مَوْلُودٌ سنة ألفٍ وتِسْعِمِئَةٍ وخمسٍ وثلاثين، سنة ألفٍ وتِسْعِمِئَةٍ وثلاثين، من يعرفك؟ أنت لا شيء؟ طَيِّب، سنة ألفين وخمسمئة! ذَكَرِي، إن كنت ممن عرف اللهُ عز وجل قد تَبَقِيَ ذِكْرَاك في القلوب، وإلا فلا، مرَّةً سألتُ طُلابِي فَقُلْتُ لهم: من يذُكِّرُ لي اسمَ غَنِيٍّ عاش في الشَّامِ سنة ألفٍ وثمانمئة وخميسٍ وثمانين؟ فَكَّرُوا وَفَكَّرُوا حتَّى عَجَزُوا عن الجوابِ، فَقُلْتُ لهم: وأنا مثلكم لا أعرف.

يا بُنَيَّ ماتَ خُدَامَ المَالِ وَهَمَّ أَحْيَاءُ وَالعُلَمَاءُ بِاقْوَانِ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانَهُمْ مَفْقُودَةً وَأَمْثَالَهُمْ فِي القُلُوبِ مَوْجُودَةً، إِذَا المَوْضُوعَاتِ، ذَكَرَهُ بِأَصْلِهِ لَمْ التَّكْبِيرُ، ذَكَرَهُ بِمَصِيرِهِ، كَيْفَ سَيَكُونُ تَحْتَ الثَّرَى، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ تَسِيرُ عَلَى ظَهْرِي، وَسَوْفَ أَضْمُكَ إِلَى بَطْنِي، الأَرْضُ القَائِلَةُ، ذَكَرَهُ بِآلَاءِ اللَّهِ فَالإنْسَانُ مُحَاطٌ بِآيَاتِ مُدْهَلَةٍ، لَيْسَتْ الآيَاتُ الَّتِي حَوْلَهُ بُرْهَانًا مُقْنِعًا، لَكِنهَا بَرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى عِظْمَةِ اللَّهِ، المَاءُ يَعْطِيكَ دَرَسًا، مَنْ جَعَلَهُ عَذَابًا فَرَاتًا وَكَانَ مِنْ قَبْلُ مِلْحًا أُجَاجًا؟ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مَنْ نَصَبَ الجِبَالَ وَأَقَامَ السُّهُولَ وَفَتَّتِ التُّرْبَةَ وَجَعَلَهَا مِمْتَلئةً بِالأَحْيَاءِ الدَّقِيقَةِ كَيْ يَنْبِتَ النَبَاتَ؟ مَنْ جَعَلَ المَاءَ يَتَمَدَّدُ إِذَا تَجَمَّدَ كَيْ يَعْينَ عَلَى تَشْكِيلِ التُّرْبَةِ؟ مَنْ جَعَلَ البَحَارَ وَمَنْ جَعَلَ القُطْبِيينَ وَالصَحَارَى وَالسُّهُولَ؟ مَنْ خَلَقَ النَبَاتَ؟ مَنْ أَعْطَانَا مِلْيُونَ نَوْعٍ مِنَ السَّمَكِ وَمِنْ صَمَمِ آفَافِ الأنْوَاعِ مِنَ الطَّيُورِ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ؟ ذَكَرَهُم بِآلَاءِ اللَّهِ وَبِأَصْلِهِمْ كَيْ يَتَوَاضَعُوا وَبِمَصِيرِهِمْ كَيْ يَخَافُوا، وَذَكَرَهُم بِآلَاءِ اللَّهِ كَيْ يَعْظُمُوهُ وَذَكَرَهُم بِنِعْمَةِ كَيْ يَحْبُوهُ، يَا دَاوُدَ ذَكَرَ عِبَادِي بِإِنْعَامِي عَلَيْهِمْ فَإِنَّ النَفُوسَ قَدْ جُبِلَتْ عَلَى حَبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، ذَكَرَهُم بِالمِائَةِ، فَكُلُّ عَشْرِينَ ثَانِيَةً يَنْزِلُ مِنْ كَلْبَتِيهِ نَقْطَةً إِلَى المِائَةِ وَلَوْلَاهَا لاحتَاجَ الإنسانُ إِلَى فُوطٍ طَوَالَ النَهَارِ، وَلا تَعْبَتَهُ فَايْنَ كَرَامَتِكَ؟ إِنْ كَانَتْ لِلإنْسَانِ رَائِحَةٌ قَبِيحَةٌ؟ وَإِفْرَاقُ المِائَةِ؛ هُوَ أَنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لَهَا عَضَلَاتٍ ضَاعِطَةً فَإِذَا أَرَدَتْ أَنْ تُفْرَغَها أفرغَتْها فِي دَقِيقَةٍ أَوْ نَصْفِها، وَلَوْلَا هَذِهِ العَضَلَاتُ لاحتَجَّتْ إِلَى عَشْرِ دَقَائِقَ كَيْ تُفْرَغَها، وَمَنْ مَنَحَها أَنْ تَمْنَعَ كُلَّ رَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ تَخْرُجُ مِنَ المُسْتَقِيمِ! مَنْ أَعْطَاكَ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَهَذِهِ الذَّاكِرَةَ وَالفُؤَادَةَ عَلَى المُحَاكَمَةِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِضِيًّا وَلَا يُرْجَعُونَ ﴾

[سورة يس: ٦٧]

رَجُلٌ دَخَلَ عَلَيْهِ ابْنُهُ فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟! فَقَدَّ ذَاكِرَتُهُ، الإِمْكَانَاتُ الفِكْرِيَّةُ هَلْ هِيَ قَلِيلَةٌ؟ هَذِهِ المِفاصِلُ وَالعَضَلَاتُ وَالعِظَامُ، وَمَنْ الَّذِي جَعَلَ عَضَلَاتِ الحَوْضِ يَرْتَكِزُ عَلَيْهِ الفِخْدُ؟ وَمَنْ جَعَلَ لِعِظْمِ الفِخْدِ عُقْطًا؟ وَمَنْ جَعَلَ هَذِهِ القِطْعَةَ فِي الفِخْدِ أَقْصَى شَيْءٍ فِي الإنسانِ؟ هَذِهِ الأَخِيرَةُ تَحْتَمِلُ وَزْنَ مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ كِيلُو، فَالإنْسَانُ لَوْ وُضِعَ فَوْقَهُ خَمْسَمِئَةُ كِيلُو فَإِنَّ العَضَلَاتَ تَحْتَمِلُها! ذَكَرَهُم بِآلَاءِ اللَّهِ، وَبِهَذَا الطِّفْلِ الَّذِي أَمَامَكَ، كَانَ مِنْ نِطْفَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَأَعْطَاهُ هَذِهِ الصُّورَةَ الحَسَنَةَ، وَالْهَمَّةُ هَذَا الكَلَامُ اللُّطِيفُ، عُلَمَاءُ نَفْسِ الأَطْفَالِ اكْتَشَفُوا صِفَاتَ لِلطُّفُولَةِ مِنْهَا البَرَاءَةُ، وَالصِّفَاءُ، وَالاِنْتِفَاعُ.

إِذَا رَأَيْتَ وَاحِدًا أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَذَكَرْهُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿ وَ لِلّٰهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[سورة هود: ١٢٣]

ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة الأنفال: ١٧]

وَذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَاِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

[سورة الفتح: ١٠]

وَذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴾

[سورة هود: ٥٥]

وَذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

[سورة الزمر: ٦٣]

وَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

[سورة الزمر: ٦٦]

تذكير بالتوحيد، إذا رأيت ما نال إلى الدنيا ذكره بالموت، رأيت ليس محباً لله ذكره بآلاء الله، ذكره بعذاب الله وبالأمراض الوبيلة، والفقر، والشقاق الزوجي، هناك مصائب لا يعلمها إلا الله.

حجم النبي الكريم أنه يذكر الناس بالله فقط :

إذا أصبح التذكير من الفطرة، وموجهة، وعرفت من يجب أن تذكر؟ وكيف؟ ومن يذكر؟ وما الموضوع الذي تذكر به؟ قال الله تعالى:

﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴾

أي أن النبي مذكّر وقد يكون بيده الأمر، مذكّر وبيده الأمر، مذكّر وبيده النفع والضّر، أمّا حينما قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴾

أي أنت مذكّر فقط، هذا هو القصر، أي أن حجم النبي الكريم أنه يذكّر الناس بالله فقط، فإذا أحبّوه وعاملوه شعروا بالسعادة، هذا كل ما في الأمر، أما أن تقول: وليّ من الأولياء يصلي العصر في مكّة، والعشاء في المدينة، والغداة في الأقصى، وهو في دمشق، لم لم يهاجر النبي هكذا؟ سئل الجنيد: من وليّ الله، أهو الذي يمشي على وجه الماء أم هو الذي يطير في الهواء؟ قال: لا هذا ولا ذلك، وليّ الله تجده عند الحلال والحرام، وقافاً عند الحرام ملتزماً بالحلال، هذه هي الولاية، أمّا أنه تُنسب لأشخاص أعمال خارقة للعادات فوق إمكانات البشر وتظن أن الولاية هكذا، قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

[سورة الكهف: ١١٠]

سيد الخلق وحبیب الحق مذكّر فإن أصبح حجمه أكثر من هذا صار تأليهاً :

اللهم إنما بشر ينسى كما ينسى البشر، قال تعالى:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة الأعراف: ١٨٨]

قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

[سورة الأنعام: ١٥]

قال تعالى:

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

[سورة الأنعام: ٥٠]

هذا نبي يخاف الله إن عصاه عذاب يوم عظيم، ولا يعلم الغيب، ولا يملك لنا ولا لنفسه نفعاً ولا ضرراً، قال تعالى:

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بَكُمُ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

[سورة الأحقاف: ٩]

سيد الخلق وحبیب الحق ولكن الفعل بيد الله عز وجل، إنما أنت مذکر هذا حجمك، أكثر من هذا صار تأليهاً.

حجم المرشد :

غلاة النصارى قالوا: المسيح ابن الله، وكل فئة تُغالي وتتجاوز الحد الذي نصَّ الله عليه تنسب بعض صفات الألوهية للبشر، فذكر إنما أنت مذکر فقط، لذلك قال الصوفيون: لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ومن لا يدلك على الله مقاله، هذا هو حجم المرشد، وأكثر من هذا لا يوجد، يذكرك بالله فإذا حصل احتكاك ومعاملة تحبه، لأنه ملتزم ومطيق، أولياء أمتي إذا رؤوا ذكر الله بهم، فإذا رأيت النبي الكريم في المنام تبقى شهراً غارقاً في السعادة، فهذه النفس اشتبكت مع نفسٍ عالية جداً تتلقى من الله تجليات عالية، هذه بعض معاني الشفاعة، اتصال النفس برسول الله في حياته وبعد مماته، هذا بعض معاني ما يحدث للمؤمن من سرور، فإذا جلس في مجلس علم فالنبي الكريم جاءه سيدنا الصديق مع سيدنا حنظلة، فقال سيدنا حنظلة: نكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، نحن والجنة كهاتين فإذا عافسنا أهلنا نسينا، سيدنا الصديق كان رقيقاً وحكيماً قال له: أنا كذلك يا أخي، انطلق بنا إلى رسول الله وهاك نص الحديث:

((عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَدِيِّ قَالَ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: لَقِيتُ أَبُوبَ بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافِقَ حَنْظَلَةَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّ رَأْيِي عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهُ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَاَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافِقَ حَنْظَلَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّ رَأْيِي عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتَكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرْشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةَ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم عن حنظلة الأسدي]

انتهى الكلام أن المؤمن في حضرة النبي الكريم يحس بمشاعر لا يحسها وهو بعيد عنه، هذه وظيفة من وظائف النبي والدعاة إلى الله.

أعلى مقام للإنسان أن يكون عبداً لله :

علماء أمي كأنبيا بني إسرائيل، هذه حال المؤمن، إذا اقتربت منه شعرت بالسعادة وإذا استمعت إليه يملوك علماً، أمّا أنه يمشي على الماء أو طار في الهواء، لا يعلم الغيب إلا الله، الولي من تجده عند الحلال والحرام هو كالبشر وليس فوق البشر، وليس عنده إمكانات فوق البشر، قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

[سورة الكهف: ١١٠]

((إنما أنا بشرٌ أَرْضَى كما يَرْضَى البشر وأغضب كما يغضب البشر))

[مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

قال تعالى: قل لا أعلم الغيب، إذا جمعت هذه الآيات تعرف حجم النبي عليه الصلاة والسلام، إنما أنا عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أعلى مقام للإنسان أن يكون عبداً لله، قال تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾

[سورة المائدة: ٧٧]

الإنسان مُحَيَّرٌ ومُسْتَقَلٌّ في اختياره عن النبي :

حتى لا يقع الإنسان بمبالغات ويعطيك للأنبياء والأولياء حجماً أكبر بكثير من حجمهم الحقيقي، ربنا عز وجل قال:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾

حتى الإنسان مُحَيَّرٌ، ومُسْتَقَلٌّ في اختياره عن النبي لذلك قال الله عز وجل:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: ٢٧٢]

قال تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

[سورة القصص: ٥٦]

ذاك نظر بشخص فاهتدى! هذه ليست لرسول الله فما بالك لمن هو دونه إذا أفتعه وجاء بأدلة منطقية، ذكره بالجنة وحذره من النار، عمل محاكمة فاهتدى، لو أن النبي يملكها لنظر إلى عمه أبي لهب فاهتدى قال تعالى:

﴿ نَبَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

[سورة المسد: ١-٥]

آيات قرآنية وأحاديث شريفة تؤكد أن الإنسان مُخَيَّر :

((يا فاطمة بنت محمد أنفذي نفسك من النار - أنظر إلى دقة البلاغة النبوية - أنا لا أغني عنك من الله شيئاً ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، من يبطن به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

((حين أنزل عليه وأنذر عشيرتك الأفرابين يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾

هذا يعني أن الإنسان مُخَيَّر، قال تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

[سورة القصص: ٥٦]

قال تعالى:

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

[سورة الكهف: ٢٩]

التلازم بين الكُفر وبين أن تُعرضَ عن الحقّ :

الله عز وجل طمأن النبي عليه الصلاة والسلام أنه ليس عليك إلا التذكير، وَعَلَيْكَ أَنْ تُبَيِّنَ لَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى يَخْتَارُوا الْهَدَايَةَ، أما إذا ظننت أنك ستُجبرُهم على شيءٍ فهذا ليس بإمكانك، ولا يعني أنه مُخَيَّر ليس له تَبِعَةٌ لِعَمَلِهِ، هذا اهتدى وذاك ما اهتدى حُرٌّ، لكي لا تقع في هذا الوهم تذكر قوله تعالى:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾

لكن من تولى وكفر لا يعفى من المسؤولية، هناك سوف يلقى تَبِعَةٌ عَمَلِهِ إلا من تولى وكفر، هناك تفسيرات لهذه الآية:

﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾

من تولى أي من أدار ظهره للحق، هذا هو الكُفر، وهناك تلازمٌ بين الكُفر وبين أن تُعرضَ عن الحق، أحياناً يُلقى المُدرِّسُ درساً قِيماً والطالب مشغولٌ يرسم خطوط سخيفة على دفتريه، فهذا الطالب مُوقِن بوجود المُدرِّسِ صَوْتاً وصورَةً وحجماً، ومع ذلك يُعتبر هذا الطالب كافرأً بالمُدرِّس، ليس معنى كافر أنه أنكر وجوده ولكن زاهدٌ بعلمه ومُعرضٌ عنه، فصار معنى الكُفر الزُهد بما عند الله، والإعراض عنه تعالى لذلك ربنا عز وجل قال:

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴾

[سورة التوبة: ٥٤]

الكُفر هو الإعراض وهو أن تُديرَ وجهك للشَّرع ولِعقاب الله ووعيدِهِ ووَعْدِهِ وَجَنَّتِهِ:

يُصَلِّي وَيُنْفِقُ مِنْ مَالِهِ وَمَعَ ذَلِكَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَالْكَفْرُ هُوَ الْإِعْرَاضُ، وَهُوَ أَنْ تُدِيرَ وَجْهَكَ لِلشَّرْعِ وَلِعِقَابِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ وَوَعْدِهِ وَوَجَنَّتِهِ، لذلك:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾

ولكن من تولى وكفر لا ينجو من تَبِعَةٌ عَمَلِهِ، (إلا) هنا بمعنى بَيِّدَ، بَيِّدَ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ:

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾

هناك عذابٌ أليم، وهناك عذابٌ عظيم، وهناك عذابٌ مهينٌ، وآخر إلى أبد الأبدِين، وهناك مَسٌّ بالعذاب، أحياناً يضغ الإنسان تياراً على يده فإذا به يُمسّ قال تعالى:

﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾

المسُّ غير العذاب المُسْتَمَرِّ، فالإنسان الذي لا يخاف الله أحمقٌ وغبيٌّ وعديم الإدراك، الله سبحانه وتعالى قال:

﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾

كُلَّمَا فَكَّرْتَ فِي عَذَابِ اللَّهِ فَهُوَ أَكْبَرُ :

قلتُ اليوم بالخطبة كلمة: أَنْكَ لا تجدُ مُسْلِماً يقرأ القرآنَ إلا ويقول بعد الانتهاء من قراءته: صدق الله العظيم، ولكِنَّكَ إذا تَفَحَّصْتَ عَمَلَهُ لم تجدْهُ مُصَدِّقاً لِكِتَابِ اللَّهِ! لماذا؟ لأنَّهُ يعملُ للدنيا ويرتكب المعاصي والموبقات، وكأنَّ الحياة هي كُلُّ شيء، ولا شيء بعد الحياة، لا حساب ولا عذاب ولا سؤال ولا جَهَنَّمَ، يعيشُ في الدنيا على أهوائِهِ، يُعْطِي لِنَفْسِهِ هَوَاهَا وَيَتَمَنَّى على الله الأمانِي، هذا الإنسان بالذات عَمَلُهُ لا يُصَدِّقُ كتابَ اللَّهِ، قد يكون في لسانه مُصَدِّقاً ولكن عَمَلُهُ لا يُصَدِّقُ، لذلك ربنا عز وجل قال:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾

ما هي العذابات في الدنيا؟ الإنسان يَفُودُ سَمْعَهُ وَعَقْلَهُ، ويدخلُ إلى مُسْتَشْفَى الأمراض العَقْلِيَّةِ، وهذا يَفُودُ أهله، وذاك مرضٌ عُضال، والآخر يَفْتَقِرُ يشتهي رغيف الخبز، هذا حدث في الحروب السابقة، يكون له ابنٌ عاق، كُلُّ هذه العذابات معقولة ومقبولة ومُحْتَمَلَةٌ، لكن ربنا عز وجل قال:

﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾

كُلَّمَا فَكَّرْتَ فِي عَذَابِ اللَّهِ فَهُوَ أَكْبَرُ، لذلك قد يُطَلُّ الإنسان حين مَوْتِهِ يُفْتَحُ له بعضُ أبواب النار، فيقول: لم أرَ خيراً قط! كُلُّ هذا العُمرُ المديد الذي أمضاهُ في النعيم والمباهج والمسرات والطعام الساخن، حينما يُفْتَحُ له بعضُ أبواب النار يقول: لم أرَ خيراً قط في حياتي، وإذا فُتِحَ باب من أبواب الجنة للمؤمن يقول: لم أرَ شراً قط، تكون حياته كلها عذاباً وأمراضاً، هذه الحياة الأبدية التي لا نهاية لها يُسْتَغْنَى عنها ويُزهدُ بها ويُستخفُّ بحَقِّها، ولا يستخفُّ بها إلا أحمق، كلام الله خالق الكون الذي خلقنا من نطفة ولم نكن شيئاً يقول:

﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾

ليس في القرآن الكريم آياتٌ أشدَّ وعيداً من هذه الآيات :

قال تعالى:

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾

والله إذا عاملت إنساناً قاسياً جداً وأبصرت عقابه الأليم فإنك تخاف من معصيته، إذا كان لك خيرة مع إنسان قاسٍ لا يرحم إذا قال فَعَلْ، فلا تُعَانِدِ من إذا قال فَعَلْ وتعصي أمره، وتطيعه طاعةً عَمِيَاءَ، فلو قال لك: اللين أسود، فُلْ له: أسود فاجم! لأنك رأيت عذابه الأليم، فإذا كُنْتَ تُعَامِلُ إنساناً من جلدتك ومن بني آدم وسوف يموت وهو بيد الله عز وجل، إذا حَذَّرَكَ وَأَنْذَرَكَ وَبَطَّشَ تُطِيعُهُ طاعةً عَمِيَاءَ، ألا يَسْتَحِقُّ الله

عز وجل خالقُ هذا الكونِ وخالقُ الشمسِ والقمرِ، وخالقُ البحارِ والجبالِ، ألا يستحقُّ الله عز وجل أن تُطِيعَهُ؟! وأن تُصَدِّقَ كتابَهُ؟ وهذا الكونُ كُلُّهُ شهادةٌ له، قال تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ*فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ*إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾

ليس في القرآن الكريم آياتٌ أشدُّ وعيداً من هذه الآياتِ، أحياناً يكون عندك ضيوفٌ فتُشيرُ لابنك أن تَهْدَأْ! ثم تُحاسبُهُ حساباً يسيراً، قال تعالى:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾

سوف يعود الناس إلى الله عز وجل ويُسألون عن كُلِّ حَرَكَةٍ وَسَكَنَةٍ وعن كُلِّ دِرْهَمٍ اكْتَسَبُوهُ وفيما أنفقوه، وعن شبابهم فيما أبلَّوهُ، وعن علمهم ماذا عملوا به:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾

الحساب على الله عز وجل فإذا كان الإنسانُ في مَحَلٍّ وخالفَ تعليماتِ مُعَيَّنَةٍ، ثم يُؤخِّدُ إلى الجِهةِ التي خالفَ تعليماتها ويُعَرِّضُ عليه شريطَ صورةٍ وصَوْتٍ بِكُلِّ حَرَكَاتِهِ وَسَكَاتِهِ وقيامه، ماذا يَحِلُّ به؟ يتمنى الأرض أن تَنْشَقَّ وتبتلعَهُ.